مع الدجل والدجالين

نختتم هذه الرسالة بكلمة عن الدجالين الذين بما ابتدعوه من خرافات رجعوا بالطب مئات السنين الى الوراء والذين لولا ادعاءاتهم وثقة الناس العمياء بهم لكانت فائدة العالم من الاكتشافات والأعمال الجليلة التي ذكرناها والتي لم نذكرها أكثر مما هي عليه الآن بكثير .

كان للدجالين إلى عهد قريب — وربما الى عهدنا هذا في بعض البلاد — شأن كبير في مهنة الطب . وقد كتب المثقفون منهم عن أمراض كثيرة وأسبابها وطرق علاجها ، ولم يكن نصيبهم من النجاح أقل من نصيب زملائهم الأطباء ، بل لعلهم كانوا يأنفون أن يعتبروا الأطباء زملاء لهم . ولم يكن احترام الناس لهم بأقل من احترامهم للأطباء ، بل ربما فاقه . فكثيرا ما اعتقد الناس في الدجل والشعوذة أكثر مما اعتقدوا في الطب والأطباء . وربما كان للعامل الديني شأن كبير في ذلك ؛ فقد ادعى بعض رجال الدين في جميع أنحاء

العالم وفى جميع الأديان القدرة على شفاء الأمراض المستعصية وغير المستعصية ، ولا زال بين ظهرانينا إلى وقتنا هذا أناس يلجأون إلى التعاويذ وزيارة الأولياء لشفاء أمراض ربما أفلح الطب فى شفائها إن هم لجأوا إلى الأطباء من أول الأمر . ولم تقتصر هذه العادة على الشرقيين وحدهم بل هى — كالتفاؤل والتشاؤم — لا زالت منتشرة إلى حد كبير بين الغربيين ، وقد كانت أكثر انتشاراً فى القرون الوسطى حينما كان الملوك أنفسهم يدّعون القدره على شفاء الأمراض وعلى الأخص التدرن . ففى انجلترا وفرنسا كانت تقام حفلات سنوية فى ميدان فسيح من ميادين العاصمة يؤمها المرضى من مختلف البلاد ويجلس الملك على منصة عالية تحيط به حاشيته ويمر عليه المرضى الواحد تلو الآخر يبارك كلا منهم بلمسه . وقد تستغرق هذه الجلسة عدة ساعات . ومن الغريب أن بعضهم كان يشعر بعد ذلك بتحسن كبير لعله راجع إلى العامل النفسى من جهة وإلى الغذاء الجيد والهواء النقى من جهة أخرى ، فمعظم هؤلاء المرضى فقراء يعيشون فى بلادهم عيشة ضنك وبؤس يقتاتون بالقليل التافه من الطعام ويسكنون منازل قذرة

مكتظة بالسكان ويستنشقون هواء ملوثا ، فاذا ماقاموا بهذه الرحلة التى قد تطول أحيانا تمتعوا بالهواء النقى والغذاء الجيد الذى يحصلون عليه بما ادخروه أو ادخره ذووهم من مال ، وما قد تجود عليهم به الدولة من الخيرات ؛ ومما لا شك فيه أن الهواء النقى والغذاء الجيد من أهم مايساعد المريض على التغلب على مرض كمرض التدرن . وقد ذكر الكاتب الأيطالى المعروف سلفاتور ايونتى أنه كان فى القرون الوسطى مثل سائر يقول « إذا مسّك الملك شفاك الله » .

ولم أر فى الأدب الحديث قصة أمتع من قصة كاتب ايطالى يدعى بتجرلى (Pitigrelli) سرد فيها تاريخ حياة دجال كما تصوره وكما تصور عقلية القوم الذين عاش بينهم . وبطل هذه القصة طبيب تنصل من درجته الطبية وأخفى حصوله عليها وجعل يزاول الطب موهما الناس أنه لايمت للطب بأية صلة ، فراجت عيادته أيما رواج واستطاع أن يؤثر بالدجل والشعوذة على عقول البسطاء والمثقفين على السواء ، فأحرز شهرة واسعة ونال الحظوة عند الملوك والأمراء . وهنالك دبت الغيرة والحسد فى نفوس حاشيتهم والمقربين اليهم فدسّوا له وسعوا

للايقاع به وأفلحوا أخيرا فى تقديمه للمحاكمة بتهمة مزاولة الطب بلا ترخيص، فأبى الدفاع عن نفسه لولا وقوع حوادث عائلية اضطرته وقتئذ أن يبرهن على أنه طبيب يحمل أكبر الدرجات العلمية ، فبُرِّئ ولكنه خسر عيادته ولم يستشره بعد ذلك مريض واحد؛ مما اضطره إلى نبذ الطب والاشتغال بالتجارة . ومن حباه الله بذكاء كذكائه لا يعدم وسيلة لجمع المال ؛ فقد نجح نجاحا باهرا باستعمال طرق الغش والخداع التى جبل عليها والتى كان فيها ممتازاً عبقريا يحمل فى رأسه عقلا جباراً وتفكيراً واسعا وقدرة كبيرة على فهم الطبيعة البشرية .

كانت أكبر تجارته فى المستحضرات الطبية التى أعلن بجميع الطرق أنها ترجع الشباب وتزيد الحيوية وتشفى الصداع وتطهر الأمعاء وتزيل الآلام وتنعش النفس وتلين المفاصل وتذيب الأملاح إلى غير ذلك من الصفات التى جعلت الناس يتهافتون عليها . ولكى يزيدها رواجاً أمر بأن يرشى الأطباء بهدايا اختلفت قيمتها مع تفاوت مراكزهم . فمن سيارة فخمة إلى زجاجة من عقاقيره العجيبة . وكان هناك طبيب واحد تحاشى أن يرشيه .

كان هذا الطبيب صديقا حميما له ففضل أن يُبقى على طهر ذمته وصفاء ضميره . إلا أنه حدث يوما أن حضر إليه هذا الطبيب وأخبره أنه قد أنهكه السير على الأقدام وأنه بدأ يصف دواءه لكثير من مرضاه ولذلك فهو يسره أن يحصل على سيارة من سياراته وأن ينال قسطه من الراحة وينعم بالعيش كما ينعم به غيره ، فلما أخبره أن هذا الدواء ما هو إلا ماء ملون لا فائدة ولا ضرر منه أجابه أنه يعلم ذلك وأنه سيثابر على أعطائه لمرضاه .

جُنَّ هذا الرجل الغريب فى آخر حياته وأحرق مصنعه وهو بعيد عنه فى وقت حدده بالضبط وبطريقة عبقرية أُحكم تدبيرها ، ثم مات فى مستشفى المجاذيب بعد أن ثبت أنه كان مصاباً بالشلل الجنونى العام وهو من المضاعفات العصبية لمرض الزهرى ، ويقال إن الاصابة به قد تنبه الذهن والتفكير لفترة قصيرة من الزمن .

وهناك أيضا قصة الدكتور نوكس وبطلها طبيب ريفى ماهر لا عيب فيه سوي أنه نزيه . فشل فى عيادته فشلا

ذريعاً، فتركها وحل محله طبيب آخر أقل كفاءة ولكنه برع في الدجل والشعوذة، فغصت عيادته بالمرضى ومعظمهم مرضى وهميون اكتسب ثقتهم فزادهم مرضاً وزادوه مالا

وإذ نحن بصدد الدجل والدجالين لن يفوتنا أن نقول كلمة عن راسبوتين ملك الدجالين وما در عليه الدجل من الخيرات وما أصابه آخر الأمر من الويلات.

ولد راسبوتين في سيبيريا من أصل وضيع وعاش عيشة فقر مدقع وجهل مطبق الى أن بلغ الثالثة والثلاثين فتزوج وأنجب عدة أولاد، الا أنه ما لبث أن سئم هذه العيشة المملة فنزح عن داره عام ١٩٠٤ تاركا زوجه وأولاده مدعيا أنه مكلف برسالة الهية لن يعود حتى يتمها وقد توخى هذا الرسول الجديد التجديد في تعاليمه. فكان منها مثلا قوله بأنه إن أراد الانسان أن يحظى بالغفران فليتمادى في الخطيئة؛ وكان هو بالطبع أول من تمادى في الخطيئة: فأسرف في اللهو والمجون متخذا الغش والخداع شعاره والخمر والنساء سلواه. وقد تمكن من التسلط على أناس كثيرين موهما اياهم أن باستطاعته أن يأتي بما عجز عنه الأنبياء وأن يشفي المرض العضال، وساعدته الظروف في بعض الأحوال،

obeikandi.com

والايحاء أو العامل النفسي في البعض الآخر ، فشفي فعلا عدد ليس بالقليل من مرضاه ، ونُسب شفاؤهم إلى دجله وشعوذته . وقد كان لما أوتيه من الذكاء وقوة الارادة والشخصية القوية شأن كبير في نجاحه . فقد كانت له عينان براقتان غائرتان شديدتا التأثير خصوصاً على النساء .

تصادف في ذلك الوقت ان أصيب ولي عهد روسيا بمرض الهيموفيليا وهو مرض لا يصيب سوى الذكور ولا ينقله إلا النساء ، وأهم أعراضه نزيف شديد قد يحدث من أبسط جرح وقد يودي بحياة المريض ، وأكبر الظن أنه ورث هذا المرض عن جدته الملكة فيكتوريا ، كما ورثه أيضاً عنها أمير استوريا ابن الفونسو ملك اسبانيا السابق ، وقد سميت فيكتوريا جدة ملوك أوروبا إذ انتشر أحفادها في جميع أنحاء القارة واختاروا أزواجهم من أسر ملوكها وأمرائها . فأم ولي عهد روسيا وأم أمير استوريا من أحفادها .

حدث ذات يوم وولي عهد روسيا في الثالثة من عمره أن كان يلعب في حديقة القصر فسقط على الأرض وجُرح جرحا بسيطا ، الا أنه نزف منه كثيراً ولم يتمكن طبيب القصر من

إيقاف النزيف، فدُعى أطباء آخرون نجحوا بعد الجهد في إيقافه، ولكنهم صارحوا الأم بأن ابنها مصاب بالهيموفيليا وأنه سيعيش دائماً معرضاً لخطر النزيف، فجن جنونها وتوسلت اليهم وإلى كل اخصائي في أوروبا أن ينقذوا ابنها، فكان جواب الجميع أن لا علاج، وأن الطريقة الوحيده هي الوقاية وذلك بأن يصان الطفل من الجروح وإلا نزف لآخر قطرة من دمه؛ ولم يخطر لهم في ذلك الوقت — كما خطر لمن أتى من بعدهم — أنه اذا كان المرض لا يصيب النساء فربما أفلحت خلاصة المبيض في تخفيف وطأته

ولما يئست الأم من الأطباء أشار عليها بعض أخصائها باستدعاء راسبوتين الذي لبى الطلب في الحال وما أن قابلها حتى طغت عليها شخصيته القوية ووقعت في شراكه وصارت ألعوبة في يده. وأكد لها أنه سيشفي نجلها كما سيمنع عنه وعنها وعن زوجها مصائب كثيرة ما دام بجوارهم. ومن الغريب أنه منذ وصوله لم يعاود الطفل النزيف مع تعرضه له. فنال الحظوة في القصر وعاث فيه فساداً وكثرت فضائحه حتى ضج رجال القصر منه. وكانت أخرى فضائحه أن غرر بمربية الأمير ونال منها مأربه، فلما افتضح أمرها طُردت شر طردة وبقي هو

ليغرر بغيرها لولا أن تداخل رئيس الوزراء وألح على القيصر في طرده ، فطرده رغم احتجاج القيصره التى حينما ذهبت لتوديعه قال لها «لست فى حاجة اليكم ولكنكم ستحتاجون الى »

عاد إلى بلدته وحدث يوما إذ كان فى أحضان إحدى غانياته أن استلت عشيقة قديمة له سكينا طعنته بها طعنة كادت تردى بحياته ، ففرح الناس وسرى عنهم إذ اعتقدوا أنه لا بد ميت ، ولكنه تغلب على المرض بصبره وقوته الخارقة وتعلقه بالحياة وقوة إرادته ، وكان طيلة مرضه يردد القول بأنه سيشفى وستعود اليه صحته كاملة ، وقد تم له ذلك إذ ما لبث أن غادر الفراش وعاد الى لهوه ومجونه وطلب الغفران بالتمادى فى الخطيئة .

وتصادف فى ذلك الوقت أن عاود النزيف الأمير الصغير فتوسلت الأم إلى القيصر أن يستدعى راسبوتين ثانيا ، وكان القيصر رجلا ضعيفا سريع التأثر بآراء غيره ، فأذعن لرغبة زوجه وأمر باستدعائه وأراد الله أن ينقذ الطفل ثانيا على يد هذا الرجل الغريب مما زاد نفوذه فى القصر ، فطغى وبغى وأصبح هو كل شىء فى البلاط الروسى ، وصار الكل يخطب وده ، من أمراء ووزراء وقساوسة ونساء جميلات وغيرهم من ذوى

الحاجة وغير ذوى الحاجة ، بل ويقال إن بعض النساء كن يسعين اليه لقضاء حاجة لأزواجهن كالحصول على رتبة أو ترقية ، مضحيات فى سبيل ذلك بأغلى ما عندهن ، فلما طفح الكيل وبلغ السيل الزبى تآمر بعض النبلاء على قتله ، فدعاه الدوق « ديمترى » والأمير « يوسوپوف » الى قصر الأخير بحجة تقديمه الى غادة حسناء من الأميرات ، ودسوا له من السم فى الطعام والشراب ما يكفى لقتل العشرات من الناس ؛ الا أن معدته لم تأبه لهذا السم فاستمر يأكل ويشرب ويسأل بين حين وآخر عن غادته الجميلة دون أن يظهر عليه أثر من آثار التسمم . حينئذ صوب عليه الأمير غدارته وأطلق عليه عدة طلقات فوقع على الأرض ؛ وبينما هم قادمون لحمله والتخلص من جثته اذ يقف ثانيا ويغادر الغرفة على عجل مما أذهل المتآمرين وكاد ينسيهم ما قدموا لأجله . الا أن الأمير ما لبث أن أفاق من دهشته فتبعه وأطلق عليه الرصاص مرة أخرى وهو يجرى أمامه ، وبعد بضعة أيام انتشلت جثته من نهر نيفا . وهكذا مات أكبر دجال فى التاريخ فحزنت عليه القيصرة حزنا شديدا ولم يمض على وفاته

أكثر من ثمانية عشر شهرا حتى قامت الثورة وذبح القيصر وزوجه وأنجاله .

ومن العوامل التى سلبت الأطباء ثقة الناس وروّجت سوق الدجالين أن عمل الأطباء كان حتى منتصف القرن الماضى مبنيا على الحدس والتخمين وأن طرق علاجهم كانت طرقا عقيمة مملة قل أن تختلف فى مختلف الأمراض . كان دأبهم فى جميع الحالات تقريبا أن يُفصد المريض حتى تنهار قواه وأن يحرم من الطعام حتى تضعف مقاومته ويصيبه الهزال وأن يعطى الملينات حتى تفسد أمعاؤه وأن تقلق راحته بالحقن الشرجية عدة مرات فى اليوم الواحد ، الى غير ذلك من الطرق التى قد لا تمت لسبب المرض بأى صلة . كان هذا كله مما أفقدهم ثقة واحترام الناس الذين صاروا لا يميزون بينهم وبين الدجالين ، ومما جعلهم أضحوكتهم فى كثير من المناسبات ، فطالما كُتبت قصص وروايات كانوا فيها موضع الهزء والسخرية ، وكثير منا قد قرأ أو شاهد على المرسح روايات موليير عن الطب والأطباء ولمس بنفسه ما نالته رواية « طبيب رغم أنفه » ورواية « المريض الوهمى » من

نجاح منقطع النظير وأكبر الظن أن أطباء ذلك العهد هم وحدهم الذين لم يضحكوا عند تمثيل أو قراءة هاتين الروايتين .

ويظهر أن الناس دائما يلذ لهم النقد أكثر مما يلذلهم الأطراء فهناك قصة « القلعة » (The Citadel) التي وضعها طبيب انجليزى يدعى كرونين والتى نالت نجاحا كبيرا وبيع من نسخها مئات الآلاف ، مرض هذا الطبيب فنصحه أحد زملائه بالراحة بضعة أشهر فرأى أن يقتل الوقت بكتابة هذه القصة ، وكان على وشك أن يقذف بها فى سلة المهملات لاعتقاده أنها لن تنال رضاء الجمهور ، فهو لم يكن بالكاتب أو الأديب الا أنه جازف آخر الأمر وعرضها للنشر فقبلت ونجحت نجاحا منقطع النظير ودرت عليه من الربح ما أغناه عن مهنة الطب . ندد هذا الطبيب فى قصته ببعض الأطباء الذين يعيشون على المظاهر ويجمعون المال بطرق أقرب الى الدجل منها الى الطب ، وسواء صح ذلك أو لم يصح فقد صادف الكتاب هوي الجمهور الذى مع ذلك لا زال يشجع الدجل والدجالين .